محمد (صلى الله عليه وسلم)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّه وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّه وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾ (الفتح:٢٩)

صدق الله العظيم

obeikandl.com

obeikandl.com

لقد جذبنى فى فترة من فترات حياتى الاطلاع على سيرة عظماء الرجال فى مختلف الأديان والجنسيات، كنت أحاول أن أعرف الكثير عن حياة هؤلاء الذين لعبوا أدواراً تاريخية عظيمة فى تاريخ البشرية.. سواء فى الفكر أو الفلسفة.. فى السياسة أو الاجتماع.. سواء كانوا قادة فى الفن أو قادة فى المعارك والحروب..

وكان هذا الإعجاب يدعونى إلى التفكير.. كيف استطاع فرد من الأفراد أن يلوى عنق التاريخ ليتخذ مساراً جديداً.. كيف يستطيع فرد واحد أن يأتى بمذهب جديد أو فكر جديد فإذا بالألوف أو الملايين من البشر يعتقدون هذا الفكر ويغيرون من نظرتهم للأمور والحياة..

وقفت عند آراء كثير من الفلاسفة، وكان يبهرنى هذا الوضوح الفكرى الذى اهتدوا من خلاله إلى نظرياتهم أو آرائهم فى الحياة، وسواء أكنت موافقاً عليها أو لك تحفظات حولها فإن الإنسان يقف بالفعل متعجباً من تلك القدرة التى أودعها الله بعض العقول البشرية.

وكثيراً ما توقفت عند القادة العسكريين الذين أداروا أعنف المعارك فى التاريخ، واستطاعوا أن يكسبوا لشعوبهم المعارك تلو المعارك.. ويرفعون أوطانهم إلى مستوى عالمى مرموق، ومن خلالهم

يمكنون دولتهم من توسيع مساحتها الجغرافية ويفرضون وجودهم على شعوب أخرى.

وقرأت لبعض الساسة الذين استطاعوا بدهائهم السياسى أن يحققوا لأوطانهم أمجاداً سياسية تثير الدهشة..

كما استوقفتنى حياة بعض كبار الأدباء التى كانت كتاباتهم بمثابة المصباح الأمامى الذى أضاء للبشرية طريقها.. فقد كانت هذه الكفايات العملاقة علامة طريق للانطلاق نحو فهم أكثر واقعية للحياة..

قرأت الفلسفة الإغريقية، والفلسفات الأوربية فى العصور الوسطى والعصر الحديث، وقرأت الكثير من الآداب العالمية.. وحاولت أن أتخيل صوراً لهؤلاء العباقرة الذين عاشوا على دنيانا ثم رحلوا بعد أن تركوا تراثا عظيما فى الفكر والأدب ودنيا الناس.. قرأت كل ذلك فى فترة من حياتى.. وعلى وجه التحديد فى أوائل بداية الشباب.. كانت القراءة بالنسبة لى حياة..كانت معشوقة عمرى..إلى أن أخذت أقرأ سيرة محمد عليه الصلاة والسلام.. ثم أخذت أتأمل القرآن الكريم.. بأسلوبه المعجز.. وأخذت فى قراءة تفسير كتاب الله لعديد من المفسرين.. فإذا بى أشعر وكأننى حصلت على كنز لا يقدر بثمن.. فأخذت أعيد قراءة السيرة، بفهم وعمق.. فإذا بكل الشخصيات التى انبهرت بها فى فترة من حياتى تختفى وتتلاشى أمام وهج الرسالة المحمدية.. كالشمس عندما تشرق لا

يبدو فى السماء سواها . . تختفى كل النجوم ولا يبقى إلا الشمس متربعة فى عليائها تبعث نورها فتبعث الحياة فى كل شىء . .

إننا هنا أمام شخصية محمد عليه الصلاة والسلام . .

شخصية مبهرة غاية الإبهار . .

متكاملة غاية التكامل . .

رائعة غاية الروعة . .

فإذا درست تاريخ حياته لا تجد الا كل ما هو عظيم وجليل . . وعندما تدرس أخلاقياته تجد أخلاقا لا يرتفع إليها إنسان . . أما الشريعة . . أما مبادىء الإسلام الذى بشر بها فهو التشريع الذى يضمن سعادة الدنيا والآخرة لو أخذنا به . . فهو دستور كامل لحياة واعية مستنيرة، وخاصة أن الأنظمة الوضعية قد ثبت فشلها وإخفاقها فى وضع أسس بمقتضاها يعيش الناس فى أمن وأمان . .

هل يمكن لهذا الإنسان العظيم أن يأتى بكل ما أتى به ولو كان مجرد إنسان ادعى النبوة ؟!

إن كل الدلائل تشير إلى صدقه . . سلوكه . . أخلاقياته . . صفاته لا توحى إلا بكل ما هو عظيم وجليل . .

القرآن الكريم الذى أوحى به إليه معجز فى كل سورة من سوره . . بل فى كل آية من آياته . . حتى إنه تحدى العرب وهم أهل بلاغة وفصاحة أن يأتوا بسورة مثله ولكنهم أعلنوا عجزهم وإفلاسهم . .

إن محمداً عاش أربعين عاماً من عمره قبل الرسالة حياة نقية طاهرة. .ولد يتيماً. .فقد مات والده وهو مازال فى بطن أمه. .وفقد أعز الناس إلى قلبه. . فقد أمه وهو مازال فى السادسة من عمره. .لقد ذهب معها لزيارة قبر أبيه. . ومكث فى يثرب شهراً. .وفى طريق العودة ماتت أمه وتركته وحيداً مع جاريته بركة. . وقد شاهد أمه وهى تفارق الحياة. .فكتم الدموع فى عينيه حتى لا يزيد من أحزانها فى لحظات الوداع. . وعندما لفظت آخر أنفاسها انكب عليها يبكيها بأحر الدمع. . ودفنت الأم العزيزة فى «الأبواء». .وعاد وحيداً إلى مكة. .ما أعظم أحزان الطفل الصغير. ولكن جده يكفله ويعوضه عن الحنان المفقود. . ويموت الجد. . يكفله عمه أبو طالب. ويحنو عليه حنوا كبيرا. .ويذهب فى رحلة مع عمه الزبير إلى اليمن . . ويذهب مرة أخرى فى رحلة مع عمه أبى طالب إلى الشام. . كان فى الثانية عشرة من عمره. . وفى هذه الرحلة قابل الراهب بحيرا الذى طلب من عمه أن يعود به إلى مكة لأنه سيأتيه الخبر من السماء. . وأن اليهود سوف يكيدون له. . وأنه يخشى عليه منهم. . وما كان أبو طالب يؤمن بهذا. . ما كان يؤمن بأن هناك إنسانا يمكن أن يأتيه الخبر من السماء. . ولكنه فى نفس الوقت خشى أن يصيب محمداً مكروه فيقول الناس عنه أنه لم ينفذ وصية الراهب، وأمر من يرجع به إلى مكة. وكان فى الرحلة عتيق ابن أبى قحافة «أبو بكر الصديق». . وآثر أن يرجع مع صديقه

محمد.. وتتوالى الأحداث.. ويكبر محمد.. ويصل إلى سن الشباب.. ونجد إنه عزف عن مجتمع مكة بلهوه وعبثه وعاداته وتقاليده..وقد أطلق عليه مجتمع مكة «الأمين» لأمانته ونظافته وأعطوه ثقتهم المطلقة.. ولا ينسى مجتمع مكة له..يوم أعادوا بناء الكعبة.. واختلفت القبائل أيهم يضع الحجر الأسود مكانه واتفقوا على أن يحكموا أول داخل للبيت الحرام.. وكان محمد الذى حل المشكلة بأن وضع الحجر الأسود فى ثوب، وطلب من كل قبيلة أن تمسك بطرف.. وأخذ هو الحجر ووضعه مكانه.. وبهذا الذكاء الخارق حل هذه المشكلة التى كان من الممكن أن تؤدى إلى حرب.. وإلى سفك الدماء..

وكان محمد يكسب رزقه بعرق جبينه، فهو يرعى الأغنام.. واختارته السيدة خديجة بنت خويلد وهى من أشراف مكة ليرعى تجارتها فى الشام.. وربحت التجارة.. وأعجبت بأمانته.. وطلبت منه الزواج وتزوجته.. كانت فى الأربعين من عمرها.. وكان هو فى الخامسة والعشرين من عمره.. ومنها رزق أولاده القاسم، وعبد الله.. وقد ماتا فى طفولتيهما، ورزق منها بزينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة، وقد ولدت فاطمة قبل البعث بخمس سنوات..

وفى سن الأربعين نزل عليه جبريل..عندما كان يتعبد فى غار حراء.. وكان ذلك فى ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان سنة ٦١٠ م.. وكانت أول آيات القرآن الكريم:

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ [العلق: ١ - ٥].

ويعود محمد عليه الصلاة والسلام إلى منزله خائفاً واجفاً، يقص على زوجته الوفية ما حدث. . وتقف الزوجة العظيمة بجانب النبى العظيم وتقول له: «أبشر يا بن عم واثبت، فوالذى نفس خديجة بيده إنى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة، والله لن يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقرى الضيف، وتعين على نوائب الدهر».

وتذهب إلى ابن عمها ورقة بن نوفل. . وكان على النصرانية ويحفظ الإنجيل، وتحدثه عما حدث لزوجها فيقول لها : «قدوس قدوس، والذى نفس ورقة بيده، إن كنت صدقتنى يا خديجة فإن ما رآه محمد فى غار حراء، إنما كان الناموس الأكبر الذى نزل على موسى وعيسى من قبل، وإن محمداً لهو نبى آخر الدهر، الذى ورد اسمه فى التوراه والإنجيل، وأنه سيقوم بإبلاغ رسالة الله جل وعلا، وسيلقى من قومه وعشيرته الإيذاء والتكذيب، وسيخرجونه ومن معه من ديارهم ثم يقاتل الذين كفروا، ثم يأتيه الله النصر والفتح فاذهبى وقولى له فليثبت».

وكانت بداية الرسالة. .

وظهرت عظمة النبى الكريم وهو يلاقى الكثيرمن عنت قريش وجهلها وصلفها، وهو يشاهد قريشا وهى تعذب المؤمنين بالرسالة. . ولم يزده ذلك إلا تمسكاً وإيماناً بقداسة ما يدعو إليه.

* «والله يا عماه لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه».

ويذهب الرسول إلى الطائف يلتمس العون، ويرجع منها ولم يسلم سوى خادم اسمه عداس. .ويلاقى هناك العنت والاضطهاد حتى إن سادة الطائف سلطوا عليه سفهاءهم ليرموه بالحجارة حتى دميت قدماه عليه السلام، وما كان منه إلا أن توجه إلى الله بهذا الدعاء الخالد الذى يذوب رقة وعذوبة وإيماناً.

* «اللهم إليك أشكو ضعف قوتى، وقلة حيلتى، هوانى على الناس. . يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين وأنت ربى، إلى من تكلنى، إلى بعيد يتجهمنى ؟ أم إلى عدو ملكته أمرى ؟ إن لم يكن بك غضب على فلا أبالى.

ولكن عاقبتك أوسع لى، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن ينزل بى غضبك أو يحل على سخطك. . لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك».

ويهاجر الرسول العظيم إلى يثرب. .وتتكون دولة الإسلام ، ويخوض معارك ضارية مع قريش واليهود وغيرها من القبائل، وتنتصر الدعوة، ويدخل محمد إلى مكة فيحطم الأصنام، ويدخل الناس فى دين الله أفواجاً، ويخطب خطبة الوداع الخالدة، ثم ينتقل إلى الرفيق الأعلى بعد أن أدى الأمانة على أحسن ما يكون الأداء.

إننا لا نسرد السيرة فهى تحتاج إلى مجلدات. . ولكننا نقف فقط مجرد وقفه أمام السيرة التى أنارت الدنيا ورسمت للناس طريق حياتهم. .وعرفتهم أمر آخرتهم ودنياهم. . وسوف تظل نور هداية للناس إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وإذا كان موضوع هذا الكتاب يدور حول دور المرأة فى حياة الأنبياء. .فإن هذا يجعلنا نقف عند الحقوق التى وضعها الإسلام للمرأة، وكيف كرمها. .وأخذ بيدها نحو حياة تشعر فيها بحياتها كإنسانة. . وتشعر فيها بقيمتها فى المجتمع. .فما أعطى قانون وضعى للمرأة ما أعطاها الإسلام، ولا عرفت المجتمعات القديمة أو الحديثة مجتمعاً كرم المرأة كل هذا التكريم الذى كرمه لها الإسلام.

ومن يدرس طبيعة الحياة الاجتماعية فى المجتمعات القديمة كالمجتمع الفرعونى أو الأشورى أو البابلى، يرى أن الرجل وإن كان له زوجة شرعية هى زوجته فقد كان له فى نفس الوقت محظيات وإيماء. وقد عرف الفراعنة تعدد الزوجات. .كما يروى لنا التاريخ أيضاً، كما وجد فى نصوص الأهرام أن الملك يستطيع أن يأخذ النساء من أزواجهن إذا رغب فى ذلك !

كما أنه معروف أن سبايا الحروب يصبحن من حق الجنود. . ولم يوجد فى الإنجيل نص بتحريم الزواج من أكثر من واحدة. . كما أن العرب فى جاهليتهم كانوا يرغمون الإماء على البغاء، وذلك لجمع المال حتى أن الإسلام نهى عن ذلك تماماً وحرمه.

﴿ وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا ﴾ [النور: ٣٣].

كانت هناك فى الجاهلية عادة فى غاية السخف وهى قتل المولود إذا كان بنتا. وكان ذلك متفشيا بصفة خاصة عند الفقراء. . فقد كانوا يخافون الفقر. . وأن يدفع فقر بناتهن إلى احتراف البغاء. . وبذلك يجلبن لأسرهن العار.

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [النحل: ٥٨، ٥٩].

بل إن المجتمع الجاهلى عرف عادة من أسخف العادات التى مرت بالبشرية. . فقد كان هناك نظام الاستبضاع وهو أن يرسل الرجل زوجته لرجل قوى، أو رجل عرف برجاحة العقل، حتى تأتى الذرية قوية فى قوة هذا الرجل وذكائه. ومعروف أن المجتمعات عرفت ما يسمى فى علم الاجتماع بالزواج الجمعى وهو أن يتزوج مجموعة من الرجال مجموعة من النساء وتصبح الزوجات مشاعات بينهم!

وعرفت المجتمعات أيضا نظام الانتساب إلى الأم. .وما أكثر الأنظمة التى مرت بها البشرية، فإذا ما قارناها بما جاء به الإسلام وجدنا الفرق شاسعا للغاية. . فقد كانت المرأة مهانة. . ضعيفة الجانب. . لا كرامة لها ولا لجسدها حرمة. . وجاء الإسلام فوضع لها مكانة مرموقة ما كانت تحلم بها، وما كانت تخطر لها على بال. .

ولعل ما كتبه الدكتور على عبد الواحد وافى فى الكتاب الذى ألفه تحت عنوان (حقوق الإنسان فى الإسلام) ومقارنة ما قدمه الإسلام للمرأة وما قدمته الشرائع الأخرى يبرز عظمة الإسلام فيما قرره من حقوق للمرأة: «فحالة المرأة فى فرنسا مثلا كانت إلى عهد قريب، بل لا تزال إلى الوقت الحاضر أشبه شىء بحالة الرق المدنى، فقد نزع منها القانون صفة الأهلية فى كثير من الشئون المدنية، كما تنص على ذلك المادة السابعة عشر بعد المائتين من القانون المدنى الفرنسى إذ تقرر أن المرأة المتزوجة حتى ولو كان زواجها قائما على أساس الفصل بين ملكيتها وملكية زوجها، لا يجوز لها أن تهب ولا أن تنقل ملكيتها ولا أن ترهن ولا أن تملك بعوض أو بغير عوض بدون اشتراك زوجها فى العقد أو موافقة كتابية منه».

وقد عاب البعض على الإسلام أنه أباح تعدد الزوجات، ولكن الذى يتعمق فى الأمر يجد أن الإسلام أباح التعدد فى ظروف خاصة، واشترط أن يعدل الزوج بين أزواجه. .وهذا أفضل بكثير

جدا مما نراه فى الغرب. .فالرجل يكون متزوجا من سيدة واحدة، ولكنه فى نفس الوقت يكون له أكثر من خليلة. .والإسلام وهو يصون للبيت كرامته لا يريد التخفى تحت اسم الفضيلة، بينما يمارس فى الداخل ما يهدم كيان الأسرة.

ولقد وجدنا عقب الحرب العالمية الثانية من نادى فى ألمانيا بتعدد الزوجات نظراً لأن الحرب كانت قد قضت على عدد كبير من شبابها، وبالتالى كثر عدد العوانس ووجدت ألمانيا. .أو المفكرون بها أن الحل يكمن فى تعدد الزوجات. .

وهنا يجب أن نقف عند بعض المستشرقين الذين اتخذوا من زواج النبى عليه الصلاة والسلام بأكثر من واحدة ذريعة للهجوم عليه وعلى الإسلام.

ولو درس هؤلاء ظروف حياة النبى وزواجه ما تكلموا بمثل هذا الكلام الذى يدل على الجهل الفاضح بحقائق الأمور.

فالرسول الكريم لم يتزوج من أجل شهوة، وإلا فلماذا ظل مدة طويلة مكتفيا بالسيدة خديجة رضى الله عنها. . لقد تزوجها وكان عمره ٢٥ عاما وكانت هى فى الأربعين من عمرها، وأنجب منها أولاده، عاش معها أكثر من ربع قرن ولم يتزوج غيرها. . وكانت السيدة خديجة نعم السيدة الفاضلة. . لقد عاشت معه تشد أزره وتسانده بمالها. .

لم يتزوج الرسول وهو فى سن الشباب إلا زوجة واحدة، بعد وفاة السيدة خديجة، وقد سمى العام الذى ماتت فيه وعمه أبوطالب بعام الحزن. . كان الرسول قد تجاوز طور الشباب، وكان زواجه من أمهات المؤمنين زواجا بوحى من الله تعالى وبأمر منه.

﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ﴾ [الأحزاب:٣٨].

والله سبحانه وتعالى يقول أيضاً:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللاَّتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالاَتِكَ اللاَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب: ٥٠].

وبعد أن فتح الرسول مكة، وانتشر دين الله ودخل الناس فيه أفواجاً، هنا استنفذت حكمة تعدد الأزواج للنبى أغراضها ونزل قوله تعالى:

﴿لا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلاَّ مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيباً ﴿٥٢﴾﴾ [الأحزاب: ٥٢].

ولقد كان الرسول الكريم وفياً غاية الوفاء للسيدة خديجة. وقد

ذكرها يوماً مما أثار غيرة السيدة عائشة فقالت له: «ما تذكر من عجوز هلكت فى الهالكين فأبدلك الله خيراً منها».

وهنا ظهر الغضب على وجه الرسول الكريم وقال: «والله ما أبدلنى الله خيراً منها: آمنت بى حين كفرالناس، وصدقتنى إذ كذبنى الناس. وواستنى بمالها إذ حرمنى الناس، ورزقنى الله منها الولد دون غيرها من النساء».

وقد كان معظم زواج النبى من زوجات فقدن العائل، أو كن على غير درجة من الجمال، وكان الرسول يعطف عليهن.

والذى يدرس حياة الرسول الكريم. .تلك الحياة التى قضاها قبل الإسلام، وكان متزوجا بزوجة واحدة. .وظلت معه بعد الإسلام إلى أن انتقلت إلى جوار ربها. .كانت حياته كلها لنشر الدعوة، والجهاد فى سبيل الله، والسهر بالليل عابداً ساجداً، حتى إنه روى أن عائشة قد رأت قدمى الرسول وقد تورمتا من كثرة الوقوف والسجود أن قالت للرسول:

ـ أو لم يغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر.

فيجيبها الرسول :

ـ أفلا أكون عبدا شكورا ؟!

والقرآن الكريم يصف حياة النبى بقوله :

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴿٢﴾ نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلاً ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلاً ﴿٧﴾ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً ﴿٨﴾ ﴾ [المزمل: ١ - ٨].

رجل حياته هكذا.. كيف يملأ هذه الحياة وهو العابد المجاهد الصابر.. المؤدى لرسالة الله.. كيف يكون مشغولا بالنساء !

هذا أمر لا يقبله منطق..

إن مولاى محمد على يقول فى كتابه (محمد رسول الله) :

«يمكن تقسيم حياة النبى الأسرية إلى أربعة أقسام:

كان أعزب حتى الخامسة والعشرين، وعاش مع زوجة واحدة من الخامسة والعشرين حتى الرابعة والخمسين، وتزوج عدة زوجات بين الرابعة والخمسين والستين.. ولم يتزوج من الستين إلى أن لحق بالرفيق الأعلى .

إن فترة العزوبة هى أهم فترة يمكن بها دفع دعوى أن النبى كان عبداً لشهواته فلو كان عبداً لها لما قبض ناصية عواطفة وميوله الجنسية، ولما عاش حتى الخامسة والعشرين حياة نموذجية من الطهر والعفاف جعلته يعرف بين مختلف القبائل بالأمين .

تحكم فى ميوله الجنسية حتى الخامسة والعشرين فى بلاد حارة كبلاد العرب حيث يبلغ الفتيان مرتبة الرجال سريعاً، وتكون عواطفهم فوارة، وميولهم جامحة عنيفة، وما استطاع أعداؤه فيما بعد عندما خاصموه أن يذكروا حادثة واحدة تمس شرفه ».

لم يكن زواج النبى عليه الصلاة والسلام إذن من أجل المتعة الجنسية كما يزعم المستشرقون. .أو على حد تعبير عباس العقاد فى كتاب عبقرية محمد :

« فهو أولا رجل يطلب ما يطلبه الرجل فى المرأة، ونحن قبل كل شىء لا نرى ضيراً على الرجل العظيم أن يحب المرأة ويشعر بمتعتها، هذا سواء فى الفطرة لا عيب فيه وهذه النفس السرية يمكننا أن نفهمها بجلاء حين نرى أن المرأة لم تشغله عما تشغل المرأة الرجل المفرط فى معرفة النساء من مهام الأمور والقيام بالأعباء الجسام. فمهما قال هؤلاء فلن يستطيعوا أن ينكروا أن محمداً قد حقق ما لم يحققه بشر قبله ولا بعده، ولم يشغله عن هذا شىء لا امرأة ولا غير امرأة، فإن كانت عظمة الرجل قد أتاحت له أن يعطى الدعوة حقها، ويعطى المرأة حقها فالعظمة رجحان وليست بنقص، وهذا الاستبقاء السليم كمال وليس بعيب، ومحمد الذى خير نساءه بين أن يرضين بحياة الكفاف أو يسرحهن سراحاً جميلاً ليس بالضرورة رجلا خاضعاً للذات حسه، فلو شاء لأغدق عليهن النعمة وأغرقهن فى الحرير والذهب وأطايب الملذات. وليس هذا فعل رجل يستسلم للذات حسه ».

ويقول العقاد أيضاً فى رده على المستشرقين :

« قال لنا بعض المستشرقين أن تسع زوجات لدليل على فرط الميول الجنسية، قلنا إنك لا تصف السيد المسيح بأنه قاصر الجنسية لأنه لم يتزوج قط، فلا ينبغى أن تصف محمداً بأنه مفرط الجنسية لأنه جمع بين تسع نساء.. فالنبى ﷺ أمكنه أن يسوس تسع زوجات، ولم يؤثر عنهن خصام أو نزاع إلا مرات تعد على أصابع اليد، فمن أتيح له أن يجمع بين عدد من الزوجات فعليه أن يقتدى به فى معاملة زوجاته بالعدل، ومعالجة الشئون المنزلية بالأناة وسعة الصدر، وعلى النساء أن يتخذن من زوجات النبى الكثيرات مثالا صالحاً يحتذينه من العفة والزهد وتدبير المنزل والرضا بما قدر لهن من متاع فى هذه الحياة الدنيا، وبذلك تسعد الأسرة بتمامها وتقوم بواجبها نحو الله ونحو المجتمع الإنسانى. ولو أن المسلمين وغيرهم تأملوا فى حياة النبى مع نسائه واقتدوا به فى معاملة الأزواج والأبناء والأقارب كما أمرهم الله لعاشوا عيشة راضية مرضية..

و..ما أكثر افتراءات المفترين على النبى عليه الصلاة والسلام.. وكلها افتراءات لا تصمد أمام المناقشة الموضوعية.. وليس مهمتنا الدفاع أمام هذه الأوهام التى عششت فى رؤوس موتورة، فالرسول له من أخلاقياته وعظمته ما يعلو فوق تفاهات التافهين .

إن الإسلام كرم المرأة. . وأعطاها من الحقوق ما لم يعطه لها أى قانون وضعى. . والحياة الأسرية لابد أن ترفرف عليها السعادة:

﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ [البقرة: ٢٣١].

والتاريخ يقص علينا كيف جاءت جميلة زوجة ثابت بن قيس إلى النبى تطلب الطلاق من زوجها لأنها لا تحبه فقالت للرسول :

ـ يا رسول الله إنى لا أجد عيباً فى ثابت فى خلقه أو دينه، إلا أنى لا أطيقه.

وسألها الرسول إن كانت على استعداد أن ترد المهر له ـ وهو بستان ـ وعندما أجابت بالموافقة استدعى الرسول ثابتاً وأمره بطلاقها.

هل هناك احترام للمشاعر الإنسانية كاحترام النبى عليه الصلاة والسلام لها، تلك المشاعر التى تبرز فى هذه القصة البالغة الدلالة والعمق، على احترام الإسلام لمشاعر الإنسان. . فالإسلام لا يجبر المرأة أن تجلس تحت سقف واحد مع إنسان تكرهه!

فالمرأة مخلوق مكرم فى الإسلام. لا هى مجرد متعة كما ترى بعض المجتمعات، ولا هى كالرقيق كما كان ينظر إليها المجتمع الرومانى، ولا هى كما تنص بعض الشرائع الهندية القديمة وتصفها بهذا الوصف البشع عندما تنص :

«إن الوباء والموت والجحيم والسم والأفاعى والنار خير من المرأة».

ولم تكتف الشريعة الهندية القديمة بأن تشبه المرأة بهذا التشبيه، بل ترى المرأة مجرد رفيق للرجل، وحياتها لا ينبغى أن تمتد بعد حياة الرجل، فعليها أن تلقى نفسها وسط النيران المشتعلة التى تحرق زوجها لتلاقى نفس مصيره..

إن الإسلام يعطى المرأة كيانها..

فإذا كان الزنا جريمة بشعة فى حق المجتمع..فإن الإسلام يرى أن تعيش المرأة كرامتها. ولا تمس هذه الكرامة تحت إشاعة كاذبة، فمن يرمى المرأة بهتانا بهذا الاتهام ولم يبرهن عليه بأربعة شهود يحق عليه الجلد ثمانين جلدة ولا تقبل شهادته .

﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾ [النور: ٤، ٥].

وإذا كان الإسلام قد حفظ للمرأة كرامتها، فلم ينس أن المرأة تدفعها غريزتها إلى الزينة..وهنا لا يقف الإسلام ضد زينة المرأة، ولكن يكره التبرج، والزينة ليست إلا لرجلها حتى لا تثير غرائز الآخرين.

﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ

أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [النور: ٣٠، ٣١].

كما أن الشريعة أباحت للمرأة حق الميراث:

﴿ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ ﴾ [النساء: ٧].

والإسلام يسوى بين الرجل والمرأة لقوله تعالى:

﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ﴾ [غافر: ٤٠].

وظل الرسول ﷺ طوال حياته مدافعاً عن المرأة.. حتى إنه فى خطبة الوداع وصى بها خيراً.. فقد قال:

«أما بعد، أيها الناس، فإن لكم على نسائكم حقاً، ولهن عليكم حق، لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه وعليهن ألا يأتين

بفاحشة مبينة، فإن فعلن فإن الله أذن لكم أن تهجروهن فى المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرح، فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف.. واستوصوا بالنساء خيراً فإنهن عندكم عوان ولا يملكن لأنفسهن شيئاً، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمات الله».

لقد كان زواج النبى عليه الصلاة والسلام كما قلنا بوحى من الله..

ولم يكن بسبب متعة أو شهوة.. فقد قضى مع خديجة أكثر من ربع قرن ولم يتزوج غيرها إلا بعد وفاتها.. وأمهات المؤمنين هن سودة بنت زمعة، وعائشة بنت أبى بكر، وحفصة بنت عمر بن الخطاب، وزينب بنت خزيمة، وهند أم سلمة، وزينب بنت جحش، وريحانة بنت عمرو، وجويرية بنت الحارث، ورسله بنت أبى سفيان، وصفية بنت حى بن أخطب ومارية القبطية.

والذى يقرأ حياة النبى مع زوجاته يراها حياة نقية طاهرة، غير أن بعض المستشرقين للأسف حاولوا أن يشوهوا من معالم الصورة، فنرى أحدهم مثلا وهو الراهب «فيدنزو» يحكى قصة أشبه بالرواية الخيالية عن قصة زواج النبى بزينب بنت جحش التى كانت متزوجة من مولاه زيد بن حارثة.. وكان الرسول قد زوجها له ليلغى الفوارق بين الطبقات.. بين السادة والعبيد، كما أن زواجها من زيد كانت له حكمة. وكان الرسول يحب زيداً ولكن زينب لم تنس يوما أنها

شريفة قرشية. وما أكثر ما لاقى زيد من صدها له. .وكان كلما شكا إلى الرسول يقول له :

« امسك عليك زوجك واتق الله ».

وكان الأمر الإلهى بزواج الرسول من زينب يحقق هدفين من أهداف التشريع الإسلامى :

١ ـ أن الرقيق الذى أعتق يمكن أن يتزوج من المرأة الحرة والفرق بين العبد والسيد هو تقوى الله فقط.

٢ ـ أن التشريع الإسلامى يوضح أن الابن المتبنى ليس كالابن الحقيقى ولا يعامل كما يجرى العرف فى الجاهلية. ومن هنا كان الأمر بتزويج النبى إلى زينب. وقد نفذ الرسول هذا الأمر عندما نزل قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ ﴾ [الأحزاب: ٣٧].

ولقد أخذ بعض المستشرقين يسردون القصة ويقولون أن النبى عندما رآها أعجب بها وقرر أن يتزوجها، عندما ذهب إلى مولاه زيد ولم يكن فى الدار وانبهر بجمالها. .

ومما ينفى القصة من أساسها. .أن زينب بنت عمة الرسول ويعرفها. .وهو الذى زوجها لزيد. .فكيف يكون رآها لأول مرة !!

والعقاد يفند هذه الادعاءات ويرد عليها رداً موضوعياً:

«ليس أسهل من شيوع هذه الأكذوبة وترويجها وتنميقها وإخراجها فى قصة غرام تذاع للتشهير برسول الإسلام كما شاعت فى القرون الوسطى. وليس أمهل من إسقاطها وإسقاط المروجين لها بخبر واحد لا شك فيه من أخبارها الكثيرة. .وهو أن زوجة زيد كانت بنت السيدة أميمة بنت عبد المطلب عمة النبى عليه السلام وأن النبى عليه السلام هو الذى زوجها ربيبه وعتيقه زيدا، وما كان جمالها خفياً عليه قبل تزويجها بمولاه لأنها كانت بنت عمته يراها من طفولته وتراه. ولم تفاجئه بروعة لم يعهدها وهو لا يطمع إلى الزواج من مثلها، يكفى أن يعرف هذا الخبر لتسقط الأكذوبة كلها. وشىء من التفصيل القليل لهذا الخبر يعكس الفضيحة على المبطلين ليعلموا حقيقة القصة المحرفة، ويعلموا أنها آية الخلق الكريم فى نبى المسلمين، وأن زيداً الذى زوجه النبى من بنت عمته لم يكن إلا أسيراً عتيقاً رباه النبى فأخلص له ولدينه وآثر المقام إلى جواره على الرجوع إلى أهله بعد تسريحه، ورفع السيد الكريم عن عبده العتيق ذل الرق بمصاهرته والمساواة بينه وبين كرام أهله، وأطاعت الزوجة النبى كما ينبغى لمثلها مع مثله. ولكنها عاشت مع زوجها كسيرة الخاطر لما كانت تتبينه من نظرات لداتها وقريناتها إليه، ويشعر زيد بما تضمره

من الحزن والأنفة فهمّ بتطليقها ولكنه يستكبر أن يقابل جميل النبى برفض الزوجة التى اختارها له وخصه بها على صحبه. . فارتفعت بنبى الإسلام مروءته إلى حيث ينبغى أن ترتفع مروءة الأنبياء وأحل زيداً من حرجه وعوض زينب عن مهانتها لتعلم ويعلم الناس أنها كفء له، وإن كان قد اختارها لفتاه الذى كان يتبناه، ولولا ذلك لعاشت الزوجة المطلقة معضلة بين لداتها وأترابها وهى لا تطمع فى الزواج من كفء لها بعد تطليقها، وليس مما يجبر خاطر الكسير أن يساق إليها الزوج الذى يكافئها وتكافئه مأمولا بزواجها.

تلك قصة أرسلوها فى غياهب القرون الوسطى، لينظر الناس فى ظلماتها إلى وصمة إنسانية يعاف من أجلها الإنسان، ويعاف الدين الذى يدعو من أجله. ويزيد عليها خبر صغير لا شك فيه، بغاية البر والإحسان إلى الأسير الضعيف الغريب عن أهله ووطنه، وغاية البر ضعف الأنوثة، والعرف على شعورها برغم إرادتها. وكانت فضيلة الصدق مع فضيلة العفة أكبر الأهداف التى تعمدها أصحاب هذه المكيدة بالأفكار فيما زيفوه من القصص المحرفة عن صفات النبى».

والقصة الأخرى البارزة فى سيرة النبى بالنساء، هى تلك الحادثة ـ حادثة الإفك ـ التى تعرضت لها السيدة عائشة رضى الله عنها. . فقد تعرضت لإشاعة سخيفة. . وقد روج لهذه الإشاعة رأس المنافقين «عبد الله بن أبى مسلول» حتى وصلت إلى أذن الرسول وإلى أذن

والدها «أبو بكر الصديق».. وكانت عائشة من أحب النساء إلى قلب الرسول.. والإشاعة ذاعت عندما صحبت السيدة عائشة النبى فى غزوة «بنى المصطلق».. وبعد انتصار المسلمين فيها ذهبت عائشة لقضاء حاجتها بعيداً فى الصحراء، وعندما عادت إلى مكانها وجدت أن العقد الذى كانت تلبسه ليس فى صدرها فعادت من جديد لتجمع حبات العقد، وعندما عادت كان الجيش قد سار إلى المدينة، وظلت هى فى مكانها وهى تعلم أنهم سوف لا يجدونها فى هودجها وسوف يعود من يأخذها.. وكان متخلفاً من جيش المسلمين «صفوان بن المعطل»، أمل أن يجد شيئاً قد تركه الجنود: فلما رأى عائشة عرفها، وأركبها بعيره، وأخذ بزمام البعير حتى وصلت إلى المدينة. والقصة عادية إلا أن المنافق «عبد الله بن أبى مسلول» أخذ يشيع أنها كانت على علاقة مع الرجل إلى أن وصلت هذه الإشاعة إلى أذن النبى وكذلك أبو بكر.. وكان الرسول يعلم تماما براءة زوجته.. حتى إنه خطب فى الناس فقال: «يا أيها الناس، ما بال رجال يؤذوننى فى أهلى، ويقولون عليهم غير الحق، والله ما علمت منهم إلا خيراً، ويقولون ذلك لرجل ما علمت منه إلا خيراً، وما أدخل بيتاً من بيوتى إلا وهو معى».

وكادت تحدث فتنة..

والرسول ينتظر وطال الانتظار..

وقال له أسامة بن زيد أن ما قيل عنها مجرد افتراءات.

بينما قال له على بن أبى طالب :

ـ يا رسول الله، النساء كثيرات، وإنك لقادر أن تستخلف، وسل الجارية فإنها ستصدقك . .

وسأل الرسول جاريتها بريرة فنفت عنها أى سوء . .

وذهب الرسول إليها فى بيت أبيها أبى بكر .

وقال لها: «يا عائشة إنه قد كان ما قد بلغك من قول الناس فاتقى الله، وإن كنت قد قارفت سوءاً مما يقول الناس فتوبى إلى الله، فإن الله يقبل التوبة من عباده. وترد عائشة :

والله لا أتوب إلى الله مما ذكرت أبداً، فلئن قلت لكم إنى بريئة لا تصدقونى، ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم إنى منه بريئة لتصدقن. فو الله لا أجد لى ولكم إلا قول أبى يوسف عليه السلام فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون».

وينزل الوحى من فوق سبع سماوات ببراءة عائشة :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ ﴾ [النور: ١١، ١٢].

إلى أن قال:

﴿ وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا

بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ [النور: ١٦ - ١٩].

وعادت عائشة إلى بيت النبى وظلت معززة مكرمة إلى أن لحق عليه الصلاة والسلام بالرفيق الأعلى فى بيتها، حيث دفن وكان عمره عليه الصلاة والسلام ٦٣ سنة وكان عمرها ٢٣ سنة.

والذى يتبع حياة أم المؤمنين عائشة بنت أبى بكر يعرف أنها لم تنس لعلى بن أبى طالب قوله للنبى: النساء كثير.. فلقد مرت الأيام.. وعندما بويع على بالخلافة جاهرت بعدائها له، وألبت عليه المسلمين، وخرجت مع طلحة والزبير إلى البصرة لتأليب الناس على الإمام على، والمطالبة بدم عثمان.. وعلم الإمام على بذلك فأرسل إليها يقول:

« أما بعد فإنك خرجت من بيتك عاصية لله ورسوله، أتطلبين أمراً كان عنك موضوعاً، ثم تزعمين أنك تريدين الإصلاح بين الناس، فخبرينى ما للنساء وقيادة العساكر، وزعمت إنك طالبة لدم عثمان، وعثمان من بنى أمية، وأنت امرأة من بنى تميم بن مرة، ولعمرى أن الذى عرضك للبلاء وحملك على المعصية لأعظم إليك ذنباً من قتل عثمان، وما غضبت حتى أغضبت، وما هجت حتى هيجت، فاتقى الله يا عائشة أن تتعظى من هذا الخطاب».

ولكن عائشة لم تذعن، ولم تبعد نفسها عن هذه الفتنة وردت على الإمام بقولها :

« يا ابن أبى طالب جل الأمر عن العتاب، ولن ندخل فى طاعتك أبدا فاقض ما أنت قاض والسلام».

وكانت معركة الجمل، وقتل فيها طلحة والزبير، ومات خمسة عشر ألف رجل.. واستبسل رجال عائشة فى الدفاع عنها، وأمر الإمام على بقتل الجمل، وانتهت المعركة بانتصار على.. وتقدم على ابن أبى طالب إلى هودجها وقال لها :

ـ « يا حميراء.. رسول الله أمرك بذلك ؟!

ألم يأمرك أن تقرى فى بيتك! والله ما أنصفك الذين أخرجوك إذ صانوا عقائلهم وأبرزوك ».

ومن المعروف أن أخاها محمد بن أبى بكر كان فى صفوف جيوش على ضد أخته !

وطلب الإمام من أخيها أن يعود بها إلى مكة مكرمة معززة. وشعرت السيدة عائشة بالندم على ما فعلته، حتى روى عنها أنها ذهبت إلى عبد الله بن عمر بن الخطاب تلومه لأنه لم يمنعها من أن تفعل هذه الفعلة وتقف ضد على.. كانت تشعر أنها تورطت بلا مبرر فى هذه الفتنة.

لقد ظلت مؤرقة الضمير، حتى إذا حضرتها الوفاة أصابها الجزع، وسألوها كيف تجزع من الموت وهى زوجة الرسول العظيم وبنت الصديق وكان ردها :

« إن يوم الجمل معترض فى حلقى . . ليتنى نسياً منسياً» .

واعتزلت السياسة بعدها . . إلى أن انتقلت إلى رحاب الله بعد أن جاوزت السبعين من عمرها وكان ذلك (فى ١٧ رمضان سنة ٥٨هـ) ودفنت فى البقيع .

وحياة نساء النبى معه . . كانت حياة لا تخلو مما يحدث بين الضرائر . . وقد حدث أن اتفقن فيما بينهن أن يطالبن الرسول بحياة أكثر رغدا، وخاصة بعد أن انتصر على اليهود وغنم المسلمون منهم غنائم كثيرة؛ فطالبن بزيادة الإنفاق عليهن، وغضب الرسول، فالرسول يرفض أن تعيش زوجاته حياة الملوك والأباطرة .

لقد ظل محمد عليه الصلاة والسلام طوال حياته متواضعاً . . بالمؤمنين رؤوف رحيم . لايريد أن يتميز على أحد . . وهو لا يتطلع إلى الغنى . . بل كان يدعو الله بقوله : «اللهم اجعل قوت آل محمد كفافاً !!» . . وهو الذى كان يقول : « إننى ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد» .

إنسان كهذا هل يمكن أن يعيش حياة مرفهة . . وهو الذى وهب حياته لله . . وعاش بالله وفى الله . . وقرر الرسول أن يعتزل نساءه، وحرمهن على نفسه، ونزل قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الأحزاب: ٢٨، ٢٩].

وأبلغ الرسول زوجاته بذلك.. وطلب من عائشة رضى الله عنها أن تستشير والدها فى ذلك فرفضت واختارت الله ورسوله، وفعلت ذلك باقى الزوجات.

وباختصار شديد.. فقد كرم الرسول العظيم المرأة.. واحترم الإسلام مشاعرها.. وأعطاها من الحقوق ما صانها عن كل ما يخدش كرامتها وإنسانيتها.. وأخذ بيدها لتؤدى دوراً مستنيراً فى المجتمع والحياة..وكفل لها من الحقوق ما يجعلها تعيش حياة آمنة مستقرة.. وكفل لها أيضاً ما يجعل منها إنسانة كريمة.. تعيش فى مجتمع كريم.. وأنها لو سلكت السلوك الذى أوصى به الإسلام.. تنال عز الدارين.. سعادة الدنيا، وحسن ثواب الآخرة.

* * *

هذه رحلة سريعة عبر رسالات السماء.. رأينا فيها دور المرأة فى حياة الأنبياء.. ورأينا كيف أن منهن من وقفن بجانب الأنبياء.. وساعدن على انتشار دعواتهم.. ومنهن من وقفن ضد الأنبياء.. وكان عاقبة ذلك خسران الدنيا والآخرة.

فالمرأة هى المرأة.. فى أى مجتمع.. إما أن ترتفع إلى القمة وإما أن تهبط إلى القاع.. إما أن تكون عامل سعادة أو عامل شقاء.. إن المرأة هى المرأة فى مختلف العصور.. وفى كل أزمنة التاريخ !!

* * *

obeikandl.com

المراجع

- القرآن الكريم.
- تفسير القرآن العظيم : لابن كثير.
- تفسير الطبرى.
- تاريخ الطبرى.
- التفسير الوسيط : للدكتور/ محمد سيد طنطاوى.
- كتب العهد القديم والعهد الجديد.
- قصص الأنبياء : لابن كثير.
- السيرة النبوية : لابن هشام.
- قصص الأنبياء : لعبدالوهاب النجار.
- الملل والنحل : للشهرستانى.
- عبقرية محمد : لعباس العقاد.
- عقائد المفكرين فى القرن العشرين (عباس العقاد).
- الله : عباس العقاد.
- قصة العقائد : سليمان مظهر.
- خاتم النبيين : الشيخ محمد أبوزهرة.

obeikandl.com

- حقوق الإنسان فى الإسلام: د. عبدالوهاب وافى.
- المسيح عيسى بن مريم: عبدالحميد جودة السحار.
- حياة محمد: د. محمد حسين هيكل.
- المرأة فى مجتمع الأنبياء: المهندس/ أحمد الجبالى.
- مشاهد من حياة الرسول: مأمون غريب.
- الرسالات الكبرى: سنية قراعة.

obeikandl.com